ولولاه كان الأفق كالليل مظلما -:- وأرجاؤه تشكو وفور المظالم
وأسبل نعمى السلم والصلح بعدما -:- تطاول دهر الخاوف المتفاقم
فكان لنا غوثاً وغيثاً وأنعما -:- وسوراً من الخطب المريع المداهم
وكم لمعاليه أياد على الورى -:- مراسمها مشهورة في المواسم
أدارت أحاديثاً لتكاثر عدها -:- على فالق الحصر زخرف زاعم
وأشرق منها في العقول أشعة -:- أزالت دياجي المعضلات الدواهم
وهذّب منا أنفساً وضمائراً -:- بأسراره العظمى سمت في المقاسم
ففي كل جيد من أياديه منّة -:- يشاهدها بالفكر أهل التفاهم

منها

ابتسم شكري مدى الدهر أنه -:- قصارى الذي شيدته في التراجم
ولو كان في المقدور ما هو فوقه -:- لكنت له والله ألزم راقم

وهي أطول من هذا وقال القاضي العلامة الضياء لطف الله بن محمد الزبيري هذه الأبيات

شموس الهدى أضحت على الروض تشرق -:- والسن حالي بالبشائر تنطق
وجمع شتيت المسلمين وحوزهم -:- بصدر إمام زال عنه التفرق
على رغم أنف الكفر قد تم نورها -:- بنص كتاب الله والله أصدق
وقد كان للأغيار فينا شماتة -:- بحر لظاها كل قلب يمزق
وأعناقهم بالطل قد تطاولت -:- إلينا بسوء زيفوه ونمقوا
فصرنا بحمد الله عضداً وساعداً -:- لنا شرف في الناس عال ومعرق
على يد مولانا وعالم عصرنا -:- ومن هو سيف للضلال ممزق
أجل بني الدنيا وفيصل خطبها -:- وكاشف داء منه ذو اللب يفرق
أبو أحمد خلف التقى شرف الهدى -:- والكرم ساع في الصلاح موفق
فيا شرف الإسلام كم لك من يد -:- بها كل جيد في الأنام مطوق
حقنت دماء المسلمين ومالهم -:- وقد كان زمناً والدماء ترقرق
وأمنت كل السبل من بعد خوفها -:- وفكيت أغلالاً لمن هو موثق
فلا زلت بدراً يستضاء بنوره -:- ولا برحت منك الفضائل تشرق
ولا فتئت منك المعارف تجتنى -:- وروض الهدى أزهاره لك تونق
وصلى على من كل فضل بفضله -:- كذا الآل والأصحاب ما المسك يعبق

وعلى أثر الصلح المذكور عيّن مولانا الإمام القضاة وكتابهم وأعوانهم في مدينة صنعاء وغيرها من القضوات والنواحي وكان على الدولة العثمانية إجراء مقرراتهم وأمر مولانا الإمام بتأسيس ديوان الاستئناف بصنعاء مرجعاً للنظر في أحكام القضاة

وإبرامها أو نقضها وعيّن جماعة من العلماء العارفين بمدارك الخصومات والفقه ورأس عليهم صاحب الترجمة وتقدمهم به فقام بتلك الوظيفة أحسن قيام مع صرامة ومهابة ونشاط وعفاف ولم يزل مجداً مجتهداً في ذلك حتى أدرك الضعف بعلو السن فاستقال من الوظيفة سنة ١٣٤٦ ولزم العبادة والذكر ودرس القرآن والتدريس

مروءته وكرم خلقه

هذا الفضل واسع المجال وشهرته تغني عن الذكر وعمدة ما قيل

خذ ما رأيت ودع شيئاً سمعت به -:- في واضح الأمر ما يغني عن الخبر

أذكر من ذلك أني منذ عرفته لكرم خلقه ومحبته الخير والإحسان ولما بدأت بالقراءة لديه سهل لي كل مطلب من كتبه النفيسة ورغبني في نقل ما به انتفعت كثيراً كالبهجة العامري وغيرها من الرسائل والأبحاث ولاحظ لي كل خير مما يعينني على الاستمرار في ذلك فأصدق لسان الحال قول من قال

سأشكر عمراً ما تراخت منيتي -:- أيادي لم تمنن وإن هي جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه -:- ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها -:- فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وكان يشكر همتي بنقل الفوائد والقراءة والمذاكرة مما أشغل عن الدرس والجمع بين ذلك وبين وظيفة الكتابة لديه بديوان الاستئناف التي منحها مولانا خليفة العصر أيده الله بحسن سعي صاحب الترجمة وكان أفضل تحفة تهدى إليه فائدة علمية وأدبية وكان كثيراً ما يأمرنا بالبحث عن بعض المسائل ننقلها ونعرضها عليه فيحتفظ بها فيزيد في نشاطنا وقد يكون الحال كما قيل

وتراه يصغي للحديث بسمعه -:- وبقلبه ولعله أدرى به

وكان لا يعتبر المجلس من أيام سروره إلا إذا كان مشتملاً على مذاكرة علمية أو أدبية وكان ينزه مجالسه عن اللغط والخوض في معائب البشر فجليسه دائماً إما غانم أو سالم وكتبت في بعض الأيام من خطه أسماء مشائخه ومقروآته عليهم وأسانيده وعرضت ذلك عليه في مجموع كتبته فاستحسنه جداً وكان من مكارم أخلاقه أنه ما كان يواجه أحداً من كلام بما يكره وإذا أراد أن يعاتب أحداً عرّض له تعريضاً ولم يسمع له بشيء بعيد من ملح الأدب وكان واسع الفكر حسن المقاصد مقبول الشفاعة مسموع الكلمة عند جميع الناس حتى ولاة الأتراك سيما الوالي الفخم حسين حلمي باشا وهو أمثل رجل عرفته اليمن من أمراء الأتراك وحكى لنا شيخنا صاحب الترجمة رضي الله عنه أن بعض أهل صنعاء كان معه فتح الباري شرح صحيح البخاري وهي نسخة خطية جميلة فاحتاج إلى بيعها وكره شيخنا خروجها

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)